

تجليات الخوف في الصحافة

بتاء الخوف وانكسار البنية القيمية في الصحافة العربية

أ. د. عبد الرحمن عزي

جامعة الإمارات

مقدمة:

يعتبر "الخوف" ظاهرة مبنية في الحياة ذاتها مثل الحالات أو المشاعر النفسية الاجتماعية المتعددة كالقلق و التوتر والإحباط والجرأة و الحماس والشجاعة الخ..، ولكل من هذه السمات معنى وحالة خاصة يميزها. و الخوف انفعال من جملة العناصر الأخرى التي تشكل مزاج الإنسان و تحكم نفسيته. ويمكن مقارنة "الخوف" بنيويا (بالاستناد إلى التضاد الثنائي Binary opposition) فيما يقابله أي "الأمن". فالخوف يصبح في هذه الحالة ما يربك الأمن بمفهومه الواسع كالأمن الذاتي و الاجتماعي " الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف." ⁽¹⁾ ويمكن أن يأتي في الجانب الآخر من الخوف "الرجاء" كما يرد ذلك في كتب التراث. ويقابل الخوف في الأدبيات الإعلامية "الحرية"، فالخوف في هذه الحالة يشل "حرية" الصحافة في التعامل الإيجابي مع قضايا المجتمع. وأحيانا يكون الخوف رد فعل لحالة غير شعورية أو آثار تحيز ذو طبيعة ابستمولوجية تاريخية مثل حال العقلية الغربية التي أحيانا "لا تعرف الإثبات إلا من خلال النفي"، ⁽²⁾ فينتج هذا العقل خطابا إعلاميا يبنى الخوف والخصومة في الآخر ويعمل على "شيطنة العدو". و بمعنى آخر، يصبح الآخر وعاء لكل ما يخافه بوصف ذلك مصدر تهديد على مستويات شتى.

و الخوف مسألة تبدو نفسية فحسب إلا أنها تشمل أبعادا ثقافية

واجتماعية وتاريخية و أخرى إعلامية، وهو إذا ظاهرة متعددة الأبعاد.

فالخوف نفسيا ظاهرة فطرية، أي يمكن القول مجازا أن الإنسان خائف بطبعه، وفي ذلك حكمة، فإذا أحسن الفرد توظيفه قاده إلى الأمن (أو الأمان) وإلا تحول به الأمر إلى حالة مرضية. وبمعنى آخر فالخوف طبع منقوص، أي مدموم في ذاته، ولكنه ضروري متى كان توظيفه باعتدال. وقد دقق الأقدمون من العلماء في هذه الصفة ورتبوها إلى أنواع ومنازل.

فقد عرف أحمد المقدسي الخوف أنه "تألم القلب و احتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال،"⁽³⁾ واعتبره "سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم و العمل." وذكر أن آثار الخوف قمع الشهوات واستكانة القلب وتأدب الجوارح ومفارقة الكبر و الحقد و الحسد. وقد أورد في الخوف عدة مستويات. فقد صنف الخوف إلى خوف إفراط و خوف اعتدال و خوف قصور. فالخوف المفرط "مدموم" يقود إلى اليأس و القنوط و يمنع من العمل وقد يخرج إلى الوله و الموت. و الخوف المعتدل "محمود" يفضي إلى المقصود المراد منه و يؤدي إلى "الحذر و الورع و التقوى و المجاهدة و الفكر والذكر والتعبد و سائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى." و الخوف القاصر ضعيف النفع قليل الجدوى وهو أشبه "بالقضب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألما مبرحا، فلا يسوقها إلى المقصد و لا يصلح لرياضتها وهذا هو الغالب على الناس كلهم إلا العارفون و العلماء."⁽⁴⁾

واعتبر المقدسي أن الخوف من الله وخشيته أعلى منزلة في الخوف. قال تعالى "ولمن خاف مقام ربه جنتان."⁽⁵⁾

وقال "رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه." (6) وجاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه ذنوبه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها." (7) وفي حديث آخر "لن يغضب الله على من كان فيه مخافة." (8) وفي حديث في نفس المعنى "عينان لا تمسهما النار أبدا: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله." (9) و بين المقدسي أيضا أن أخوف الناس أعرفهم بنفسه و ربه. قال تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء." (10) وفي حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أيضا "أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية." (11) كما فصل المقدسي في مقامات الخائفين و ذكر "ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل إلى عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة." (12) و قد ذهب الأقدمون أبعد من وصف "الخوف" ذاته ورأوا بأن حياة الفرد توازن بين الخوف و الرجاء، و ينطبق ذلك على العبادات و المعاملات. و بينوا في ذلك أن الجامع بين الخوف و الرجاء محبة الله تعالى، وشبهوا هذه العملية بالطائر الذي يكون رأسه المحبة و جناحه الخوف و الرجاء. فالخوف من الله في هذه المنظور يحول الأنواع الأخرى من الخوف إلى ظواهر نسبية لا تعلو عن خوف الله أو تماثله.

و الخوف سمة من سمات الأنبياء و العلماء و الصالحين. فقد ورد ذكر الخوف مرارا في القرآن الكريم عن سيدنا موسى عليه السلام ولعل ذلك ما جعله يؤدي رسالة النبوة باستحقاق. فلما قتل قبطيا "فأصبح في المدينة خائفا يترقب،" (13) ولما علم بتأمر الملاء عليه "فخرج منها خائفا يترقب،" (14) ولما

قضى الأجل و آنس بجانب الطور و سمع النداء انتابه الخوف أيضا "وأن ألقى عصاك فلما رآها تتر كأتها جان ولى مدبرا و لم يعقب يا موسى أقبل و لا تخف إنك من الآمين." (15) ولما هم بالذهاب إلى فرعون "قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون،" (16) ولما طلب صحبة أخيه هارون قال "فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون،" (17) ولما ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى "قال خذها و لا تخف،" (18) ولما أمره الله تعالى بالذهاب مع أخيه إلى فرعون "قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو يطفئ. قال لا تخافا إني معكما أسمع و أرى." (19) و لما ألقى السحرة جبالهم "فأوحس في نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى،" (20) وهكذا. فالخوف من خشية الله إذا قيمة يتصف بها أولياء الله من عباده المخلصين.

وعامة، فقد اعتبر الأقدمون أن الخوف "سنة" إلهية تنعكس على الفرد بالإيجاب متى كانت عنصرا في توازن الفرد و استقامته. فإذا كان الخوف بمقداره أو "باعتدال" كان ذلك من طبيعة الأشياء، إلا أن الخوف يتحول إلى حالة مرضية فيصبح أداء تعطيل أو تدمير على مستوي الفرد و الأمة على حد سواء .

وقد تبين لي في قراءة "نص التراث" أن الخوف مسألة مركبة، وقد تحمل نقيض ما تعنيه الكلمة للوهلة الأولى. فالخوف من الله أقرب إلى محبته، وهذا ما نجده مثلا في أن الفرد عندما يخاف "شيئا" فإنه يفر منه، أما الخوف من الله فإنه يجعل هذا الفرد يفر إليه (وليس منه)، ففروا إلى الله. كما أن الخوف في حد ذاته ليس تراكميا (تصاعديا)، فالخوف من الله يؤدي عدم

تجليات الخوف في الصحافة..... أ. د. عبد الرحمن عزي

الخوف من آخر سواه "فلا تخشوهم و اخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم
تتدنون." (21) والخوف بهذا المعنى ليس في تناول "الكل" إذ أنه مشروط العلم
"إنما يخشى الله من عباده العلماء." (22)

وفي نظرنا، فإن الخوف "المفرط" (المرضي) مرده الفراغ على مستوى
قيم الفرد أو الجماعة، و هذا الفراغ يفقد الفرد "المعنى" الذي يرد به أو يقيه أو
يمنعه من خوف الآخر الذي قد يعتمد إلى اللامعنى في الخوف، أي التخويف.
إن التخويف في هذا الإطار مستوي من فقدان المعنى على مستوى القائم به و
قد يقابه فقدان "المعنى" عند المتلقي فيصبح خائفا "أو مذعورا".

و يتعين غي هذا السياق أن يتم تطوير هذا الطرح و معالجة "الخوف و
التخويف" ليس فقد كظاهرة انفعال على مستوى الفرد أو الجماعة وسبل
استخدامها سلبا أو إيجابا، بل كأداء استراتيجي أساسية في الحرب النفسية
المعاصرة، فالخوف و التخويف أصبح صناعة وسلاحا أشد "فتكا" من الأدوات
الأخرى ، وعليه يتوقف النجاح أو الفشل، فمن المعروف أن "الهزيمة" تبدأ
بالنفوس و تنتهي بها.

و قد صنف علماء النفس الحديثين الخوف الزائد عن حده بالمرض
النفسي وسموه "بالفوبيا" (phobia) و مرده الشحنات السلبية المستقرة في لا
شعور الفرد بفعل تجارب مؤلمة سابقة مع الخوف. و قد ذكروا عددا واسعا من
أصناف الفوبيا التي نمت و تفرعت مع تطور المجتمع المعاصر و من ذلك
الخوف من العلو (acrophobia) ، الخوف من المساحات المفتوحة
(agoraphobia) ، الخوف من الرعد و البرق (brontophobia) ، الخوف من

الفشل (atychiphobia) الخوف من البحر (thalassophobia) الخوف من التغيير (metathesiophobia) الخوف من الأجانب (xenophobia) ، الخوف من الإسلام (islamophobia) و الخوف من التكنولوجيا (technophobia) و القائمة طويلة. (23) ويمكن إضافة الخوف من الصحافة إن لم يأت ذكرها بعد فأمكن تسميتها في هذه الحالة ب (pressphobia) أو (mediaphobia) .

و الخوف المرضي يتحول إلى ظاهرة ثقافية إذا ولد المجتمع "مألوفات و محظورات" تخويفية" تتدخل في نشئة ثقافة الفرد، فتترك هذه التنشئة بصمات على الأفراد بغض النظر عن الفروق الذاتية. و الحاصل أن بعض الثقافات و لضعفها "تبالغ" في ترسيخ الخوف و تنسج عالما من الأساطير و الوقائع عن "الوحوش" و "الخوارق" التي تنمي "ثقافة الخوف" و تحول دون التعبير و الإبداع في شتى مجالات الحياة.

و الخوف أيضا علاقات اجتماعية، و قد يتسرب الخوف إلى الخطاب اليومي بين أفراد المجتمع فيصبح ظاهرة اجتماعية. و يمكن أن نلمس هذا المشهد جزئيا في المنطقة العربية بشدة الحساسية تجاه موضوع "السياسة"، فتبدو السياسة فضاء مملوءا بالمخاطر رغم أن السياسة جزءا من الحياة . فمن وجهة نظر معينة، يمكن أن تكون السياسة حياة و الحياة سياسة إن صح هذا التعبير.

و يتدخل التاريخ في نقل الموروث بما في ذلك الخوف، وذلك إما في شكل تحارب سلبية في شكل ممارسات تسلطية أو انكسارات.

و يتدخل الخوف في الصحافة في أكثر من محور. فأحيانا تكون أداء تحويل الخوف، و أحيانا تغلب دور التنشئة الاجتماعية للخوف عندما يتعلق الجمهور بهذا النوع من المحتوي، وفي أوقات تكون مصدر الخوف داخليا و في العلاقة مع المحيط الخارجي. و تتفاعل الصحافة بدورها مع "الجو" الثقافي و الاجتماعي و التاريخي المرتبط بالخوف إما إيجابا عندما تسعى إلى تجاوزه أو سلبا عندما تعززه.

الخوف في الصحافة: بعض المفاهيم النظرية

إن الخوف في الصحافة وإن كان متعدد الأبعاد فهو يخص الخوف من الرقابة سواء أكانت هذه قبلية (pre-control publication) أو بعدية (post-publication control). و "الرقب" قد يكون محددا كأن تكون وزارة أو قضاء أو سلطة أمنية، الخ. و قد لا يكون معروفا و إنما يبرز في شكل أوامر من جهة ما. إن مثل هذا الخوف وإن كان مبررا ظاهريا فإنه حالة مرضية تعطل أو تبطل مفعول الصحافة ووظائفها في المجتمع. ويمكن تعريف الخوف في الصحافة عامة بأنه التصور الذي يحمله الصحفي (أو حتى مؤسسته) وهيبا أو حقيقيا عن المخاطر المحدقة بالنتائج المترتبة عن تناول موضوع يمس طرفا أو أطراف ذات نفوذ في المجتمع. و يتضمن الخوف في الصحافة أيضا الخوف من الصحافة و التخويف بها. فالخوف في هذه السياق حالة ضعف سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو المؤسسة الإعلامية. وقد يكون الخوف حالات محددة و ذلك أيسر بالمقارنة و قد يكون مبنوثا بشكل غير مباشر في مضامين وسائل الإعلام فيتحول إلى جزء من سمات الخطاب الإعلامي السائد. إن الخوف الذي

نعتمده في هذا الموضوع هو الخوف المرضي أو (phobia) الذي يزيد عن حده و ينقلب بالسلب على الصحافة و الفرد و الأمة.

الخوف في الصحافة: بعض الخلفية التاريخية

ارتبط الخوف في الصحافة تاريخيا بالخوف من الكلمة و بالأحرى المكتوب. فالخوف من المكتوب مرده الخوف من انتشار الفكرة أو الأفكار التي يصعب أو قد يستحيل التحكم في الأثر الذي يمكن أن تحدثه هذه الأخيرة في أوساط "الرعية" أو عامة الناس. ويؤدي انتشار الفكرة أو الأفكار خاصة إذا كانت تعيد النظر في المسلمات إلى إضعاف سلطة الحاكم أو السلطة السياسية وإضفاء نوع من السلطة (empowerment) على الآخر أيا كان. فالمكتوب أوجد ثقافة جديدة صعب التحكم في مجراها و آثارها. وكان ذلك المحرك في سيطرة الحاكم أو السلطة السياسية على هذه الوسيلة لحظة نشأتها خاصة في أوروبا بدءا بالقرن 16. وساد النظام أو النظرية السلطوية في الصحافة أوروبا في القرنين 16 و 17 وظهرت حل الآليات الخاصة بالرقابة في تلك الفترة. وارتكز هذا النظام على مبدأ "الضبط القبلي" (law of prior restraint) ويعني ذلك أن تحدث الرقابة قبل النشر، فالموضوع ينشر بعد موافقة الجهة الرسمية مسبقا. والحاصل أن "السيطرة" عل الصحافة كان أيضا وليد البنية الذهنية التي سادت في التراث الغربي آنذاك من أنه ليس "للرعية" دور في العملية السياسية وأن السياسة مجال الخاصة كما نجد ذلك في أصول الفلسفة اليونانية قديما. و يبرز هذا المعنى كذلك عند ميكافلي في كتابة "الأمير" والذي يعتبر أن رأي "العامة" مهم بقدر ما يسمح للحاكم من اتقاء شره. وإذا، فإن الرقابة

تجليات الخوف في الصحافة..... أ. د. عبد الرحمن عزي

الصحفية نشأت في أوروبا قبل أن تتكرر هذه الآليات في المنطقة العربية لاحقاً. وقد اهتمت هذه البنية الذهنية في أواخر القرن 17 وبداية القرن 18 بإسهامات فلاسفة التنوير الذين أعادوا "منطق العقل" إلى "منطق الفرد" فأصبح الفرد في نظرهم مصدر الحكم وأداته. و ترتب عن ذلك أن ظهر الحديث عن "حرية التفكير" و "حرية الرأي" و "حرية الصحافة" كشرط في بناء "العقد الاجتماعي" الذي يحكم العلاقة بين الحاكم والمحكوم. و اعتبر ميل⁽²⁴⁾ مثلاً أن حرية التفكير حقيقة عليا وأن لا مبرر لحجب الأفكار بحكم أن الفكرة الصحيحة تفرض نفسها على الفكرة الخاطئة في سوق حر للأفكار. واندرج ذلك فيما نعرفه بالنظرية الليبرالية في الصحافة. ثم تمت هذه النظرة الجديدة مجدداً في عدد من المنظومات الإعلامية الغربية المعاصرة كالمسؤولية الاجتماعية (social responsibility theory) و الإعلام المرتبط بقضايا المجتمع (civic journalism) في أمريكا و الخدمة العامة (public service) في أوروبا واليابان.

إن خوف الحاكم من أثر الصحافة على تفكك آليات الضبط الاجتماعي آنذاك كان في محله، لكن هذا التفكك كان ضرورياً "أو حتمياً" أدى إلى إعادة بناء النظام الاجتماعي على أسس قائمة على مراعاة "حقوق الفرد" و المصلحة العامة. فقد أدى انتشار المكتوب في أوروبا مثلاً إلى إضعاف سلطة الكنيسة والإقطاع وظهور الحركات الإصلاحية الدينية التي ارتبطت بـ "لوثر" في ألمانيا و "كالفين" في فرنسا وغيرهم. و كان لأثر هذه الإصلاحات أن تولد المجتمع الرأسمالي الغربي المعاصر كما بين هذا الارتباط بين الإصلاح

والاجتمع الجديد ماكس قيبر في مؤلفه "الأخلاقيات البروتستانتية و روح لرأسمالية." (25)

وقد دخلت الصحافة إلى المنطقة العربية و الإسلامية و هي (أي المنطقة) في حالة ضعف أو "انحطاط" تاريخيا و حضاريا، ومن ثم كان التعامل مع هذه الوسيلة ظاهرة أملت لها ظروف خارجية. وتأثر دخول الصحافة "بمفهومها المعاصر" إلى المنطقة العربية بعوامل عدة منها أن الخلافة العثمانية كانت في مراحلها الأولى تخشى (26) دخول "المطبعة" إلى المنطقة. فقد دخلت المطبعة الخلافة العثمانية حوالي 1761 في عهد السلطان أحمد الثالث، (27) أي بعد حوالي ثلاثة قرون من ظهورها بأوروبا (28). فالخوف من المطبعة كان إلى حد مقدمة الخوف من الصحافة و المكتوب عامة. ثم دخلت المنطقة في فترة الاستعمار الذي عمد إلى تضيق الخناق على الصحافة التي يمكن أن تحمل بعض العداء للاستعمار. و الحاصل أن الصحافة التي خرجت من دوائر الخوف و قبضة الإدارة الاستعمارية كانت تلك التي ظهرت في أوساط المهاجرين بالمهجر أو تلك التي كانت سرية بالداخل. فعلى سبيل المثال ظهرت صحيفة الأمة (باللغتين العربية و الفرنسية) التي أصدرها حزب الشعب الجزائري سنة 1930 في أوساط المهاجرين الجزائريين بفرنسا وكانت توزع سرا في الجزائر، وكانت هذه الصحيفة التي تظهر أحيانا و تختفي أحيانا أخرى من أولى الصحف المنادية بالمقاومة و الاستقلال. أما الصحف التي كانت تصدر بموافقة الإدارة الاستعمارية فتجنبت الخوض المباشر في قضية الاستعمار ذاته خوفا من مصادرهما أو توقيفها كما حدث في حال العديد من الصحف التي حاولت

ذلك. و تميزت الصحافة بعد الاستقلال في المنطقة العربية بالخطاب السياسي القائم على ترويح سياسيات الدولة الناشئة في شتى المجالات مع الاعتماد على آليات الرقابة التي تميز الأنظمة السلطوية. ورغم أن الإعلام التنموي كان يحمل الكثير من الآمال في إشراك المجتمع في العملية التنموية إلا أن الرقابة الرسمية حولت الإعلام إلى أداة في خدمة سياسيات الدولة و الدعاية لها بشتى الوسائل. وساهمت أيديولوجية الرقابة هذه في بناء الخوف في كل من الصحافة و المجتمع. (29)

آلية الاستبداد الذاتي

يعتبر الخوف المفرط نوع من الاستبداد الذي يمارسه الفرد على نفسه و يشكل ذلك جزءا من مكونات الفرد الذاتية والتي تنعكس على شخصيته وكيانه. و يسمى ذلك في الأدبيات الإعلامية بالرقابة الذاتية. وقد يصاحب هذا الإحساس صراعات ووساوس داخلية متعددة. و يترتب عن ذلك تأثير ما يتلقاه الجمهور مما يجول في خاطر الكاتب حال صياغة الموضوع وبنائه. وقد سمى لوين هذه الصيرورة بحارس البوابة (gatekeeper)، هذا الموقع الحساس الذي يتحكم فيما ينتقل إلى الجمهور من قضايا و معلومات. فالرقابة الذاتية في هذه الحالة نتاج الخوف و مصدره في نفس الوقت.

آليات المراقبة الاجتماعية في غرفة الأخبار

تستخدم الصحافة كثيرا كآلية توليد للخوف. فالصحافة وثيقة الصلة بالسياسية بل هي أداة سياسية مميزة في الأنظمة السلطوية. وكما قال

جفرسون⁽³⁰⁾ "لو خيرت بين حكومة بدون صحف أو صحف بدون حكومة لاخترت الأخيرة دون أدنى تردد." وإذا كان النظام السياسي يعتمد على التخويف ، فإن الصحافة تكون الوسيلة الأمثل في نقل الخوف إلى أوساط العوام. وقد عبر الكواكي عن ذلك بالقول أن "العوام هم قوت المستبد وقوته، بهم عليهم وصول وبهم على غيرهم يطول." و يترتب على هذا التأثير أن يحدث في أوساط العامة الولاء "غير المشروط" و تقديس الحاكم وإبطال دور الفرد في المشاركة في الحياة السياسية و الاجتماعية و الثقافية. وقد أظهرت عدد من الدراسات الخاصة بالمراقبة الاجتماعية⁽³¹⁾ أن المؤسسة الإعلامية تتضمن آليات مباشرة و أخرى غير مباشرة في تحقيق "الضبط الاجتماعي" وجعل الصحفي يؤدي مهامه وفق سياسة الصحيفة و توقعاتها بكيفية تصبح التغطية الإعلامية و السياسية من المسلمات التي لا تخضع للشك و التأويل.

يمكن تصنيف "الخوف" الذي قد ينتاب الصحفي في أداء مهامه عامة إلى الخوف من (تعود إلى الوضع) و الخوف على (تحسب على الصحفي ذاته):

- الخوف من "الرقب" سواء أكانت وزارة أو حكومة أو شرطة أو قضاء، الخ. وهذا الخوف ليس في المساءلة بقدر ما يخص "الاعتباط" أو "التعسف" بحكم أن هذه المؤسسات ليست محكومة دائما بسلطة القانون و إنما بسلطة القوة. فقد يكون القانون قائما إلا أنه لا يحكم الواقع. وبالمقارنة مع حال الصحفي في المجتمعات الغربية، فإن الصحفي في المنطقة العربية يعمل في جو "مجهول" تكون في الآليات القانونية "التي تحميه" غير قائمة أو معطلة جزئيا أو انتقائية مما يفقد

الصحفي ذلك السند أو "الترسانة" القانونية التي تجعل عمله في منأى عن هاجس الخوف.

• الخوف من القوانين العقابية المتعددة كقوانين النشر و قوانين الإعلام والتي تسرد بالتفصيل ما يترتب عن التجاوزات من غرامات أو سجن. ولعل هذا الأمر ما حدى بالذين كتبوا الدستور الأمريكي أن يتباطوا ويضعوا بندا أصبح يعرف بالمادة الأولى المعدلة في الدستور (First Amendment) من أن الكونغرس لا يمكن أن يسن قوانين تحد من حرية الصحافة. وما تزال هذه المادة محل اعتزاز و حماية للصحافة الأمريكية حتى وإن كان الواقع لا يعزز ذلك دائما.

• الخوف من "تخيز القانون ذاته"، ذلك أن المؤسسة القضائية قلما تكون مستقلة في المنطقة العربية. فالخوف الذي ينتاب الصحفي قد ينتاب المؤسسة القضائية (إن كان لها بعض الاستقلالية) فيشارك الطرفان في الخوف الذي يؤدي إلى إصدار أحكام تبدو في شكلها قانونية بينما تعكس في مضمونها حالة مرضية .

• الخوف من "المسؤول المباشر": وعامة، فإن المؤسسة الإعلامية مؤسسة بيروقراطية معقدة يحكمها سلم الهرم الإداري إذ يكون كل "موظف" تحت وصاية أو "إشراف" من هو أعلى منه في المرتبة الوظيفية كأن يكون المحرر تحت إشراف رئيس القسم الذي يكون بدوره تحت إشراف مدير تحرير وهكذا. والحاصل أن العلاقة بين الصحفي والمسؤول المباشر تحكمه اعتبارات خاصة بالمجال الصحفي الذي يحدث

فيه الكثير من الحراك و التجاذب والتفاوض و التراع.

• الخوف من الجمهور والمحيط الخارجي عامة: فرغم أن "الجمهور" ليس هما كبيرا في أذهان معظم وسائل الإعلام العربية، إلا أن نمو المجتمع المدني و التنظيمات غير الحكومية والمؤسسات الخاصة التي تسعى إلى تحقيق مكانتها و بناء صورتها وسمعتها أو الحفاظ عليها بالإضافة إلى تطور الوعي الثقافي يشكل ضغطا على "الاسترخاء" الذي قد يميز العمل الإعلامي في المنطقة العربية.

• الخوف من "انعدام التضامن" في أوساط الصحفيين الحرفيين أنفسهم، ذلك أن جل الجمعيات الصحفية تفتقر إلى الاستقلالية وكثيرا ما تكون أداء شكلية حساسة للجو الرسمي السائد.

• الخوف على الوظيفة ذاتها، فالصحفي قد لا يمتلك بدائل كثيرة على النحو الذي قد يحدث في المجتمعات الغربية، فقد تحول وظيفته إلى "سجن صغير" لا بد منه. فالأمن الوظيفي محدود و تتحكم فيه اعتبارات ذاتية أو مصلحة وليس الكفاءة بالضرورة. وإذا كانت الوظائف و الترقية تقوم على مبدأ الأحقية (meritocracy) في المؤسسات الغربية عامة فإنها كثيرا ما تقوم على مبدأ الرداءة (mediocrity) وعلاقات الولاء وغيرها في المنطقة العربية.

• الخوف على "ضياع" الامتيازات، كالترقية و السفر و تكوين العلاقات، مما يؤثر على الطريقة التي يغطي بها الصحفي الأحداث.

إن هذه الأنواع من الخوف نظرية من حيث أنها قد تصاحب الصحفي تارة أو أحيانا أو تشكل هاجسا مستمرا إلا أن هذه الحالة قد تتطور إلى وضع يتجنب فيه الصحفي كل من يؤدي إلى الخوف فيختفي الخوف في دائرته الضيقة فيتحول الأمر من حالة مرضية يكثر فيها الخوف إلى أخرى يضعف أو "يعدم" فيها الخوف. وقد أظهرت العديد من الدراسات الخاصة بالرضا الوظيفي في المؤسسات الإعلامية أن ذلك يكون محدودا عامة.

الخوف في الصحافة و الخوف منها و التخويف بها

إن الخوف في مجال الصحافة يحمل عدة أبعاد كون الصحافة تمس المجال العام (public sphere). فالخوف في الصحافة ينشأ في الصحافة نفسها إما على المستوى الفرد (الصحفي) أو المؤسسة. والخوف من الصحافة يمس المؤسسة السياسية و القطاعات المتأثرة أو المتضررة بالصحافة. أما التخويف بالصحافة، فهو استخدام الصحافة كأداة في "نقل" الخوف إلى الآخرين وفق أهداف محددة مسبقا.

والخوف في الصحافة أمرا في الصحافة ذاتها. فقد يعود هذا الخوف إلى الفرد (أي من سمات شخصيته) و ما اكتسبه ذاتيا في المؤسسة. ويمكن أن يكون وليد المؤسسة الإعلامية و آلتها التنظيمية والبيروقراطية.

ويصف أحد الصحفيين خوفه من الكتابة بقوله:

ولأن الخوف ليس واحدا أريد أن أفصل قليلا داخل خيط قماشته نفسها، فهناك الخوف الذي انتابني أثناء كتابة المقال، و الخوف الذي شعرت

به يوم نشر المقال و انتظار ردة الفعل... و الخوف يوم وصول الاستدعاء... و الخوف الذي تولده التجربة و تركه في النفس بعد انتهائها، ومدى تأثيره في المباشرة بكتابة مقال جديد، أو الصمت و الانتظار حتى تنتهي آثار تلك التجربة... ولأنني خضت تجربة الخوف من أبسط أشكالها الغريزية، و تعاملت مع أقصى تحليتها إلى حد إصابتي بمرض السكري... (32)

وأظهر تحقيق في أوساط 273 مراسلا محليا في الجزائر أن 60% من هؤلاء يعترف بممارسة الرقابة الذاتية في كتاباتهم "خوفا من المخاطر التي تلاحقهم، و خوفا من عدم نشر مقالاتهم من قبل المؤسسات الإعلامية المستخدمة، ومخافة فقدانهم لبعض الامتيازات." (33) و يضيف التحقيق أن "ضعف الحماية الاجتماعية للمراسلين يطرح إشكالية غياب الضمانات القانونية للمراسل في مواجهة مخاطر المهنة... (التي) تصل إلى حد تهديد حياة المراسل... وقد وصلت المخاطر المحدقة ببعض المراسلين إلى حد الانتحار... (وقبل ذلك) اغتيال و اختطاف عدد من المراسلين في إطار انهيار الأوضاع الأمنية التي كانت تعيشها الجزائر لأكثر من عشرية من الزمن." (34)

يعتبر شومسكي (Noam Chomsky) (35) أن الخوف الذي مصدره التخويف يتم فبركته بصفة مقصودة بقصد زيادة المراقبة الاجتماعية في أوساط المجتمع أو الرأي العام الذي "لا يوثق فيه." و يشاركه الرأي العالم الاجتماعي كلاسنر (Barry Glassner) و المخرجون السينمائيون أمثل مور (Michael Moore) صاحب الفيلم الجدلي "حرارة 11 أيلول" (Fahrenheit 9/11) و كوتس (Adam Curtis). و يرى هؤلاء أن الهدف من التخويف المستمر

والمكرر "إنتاج سلوك معين، وتبرير سياسات الحكومة و أفعالها (داخليا وخارجيا)، وجعل الناس ينهمكون في الاستهلاك، انتخاب السياسيين الديمagogيين و إبعاد أنظار المجتمع عن القضايا الاجتماعية الملحة كال فقر والضمان الاجتماعي و البطالة و الحد من انتشار الأسلحة و التلوث." (36)

و يقع في الجانب الآخر من يرى أن "الخوف" إحساس أو ظاهرة مبنية في الحياة المعاصرة. و يعيد العالم الاجتماعي فرودي (Frank Furedi) الخوف إلى ما سماه "فشل في الخيال التاريخي"، وهو أحد أعراض "استتراف نظم المعنى السياسي في القرن العشرين." (37) ويرى فرودي أن الثقافة تتدخل في طريقة الاستجابة للخوف، فبعض الثقافات تستجيب بالذعر (كبريطانيا و ألمانيا) وأخرى بالهدوء المحسوب (كفرنسا و بلجيكا). و يضيف أن "الصحافة والسياسيين يمكن أن يضاعفوا أو يستغلوا هذا الإحساس ولكن ذلك لا يكون أمرا حاسما في إنتاج الثقافة." (38)

و يتجلى الخوف من في الصحافة العربية (39) في عد أشكال:

1. تجاهل "الحدث" الذي يمس أو يهز صورة المؤسسة الرسمية حتى وإن كان الحدث ذو أبعاد على مستويات عدة (40) كمثّل تجاهل "تظاهرة" وقعت بالفعل إما للتعبير عن تدمير في العلاقة مع قضية محددة أو للتعبير عن تضامن مع قضية خارجية.

2. التقليل من شأن الحدث (41)، كالحديث عنه على هامش مواضيع تطرح على أنها أكثر أهمية، وكأن يذكر الموضوع مثلا في صفحة داخلية بدل

3. انتقاء جزئيات الحدث التي تدعم التفسير أحادي الاتجاه للحدث، أي تفصيل الحدث وفق مقاس صانع القرار.

4. "تشويه" الحدث بوصفه بالعرقلة و المساس بالأمن العام و أحيانا إدخاله في خانة العصيان و مخالفة القوانين و الأعراف السائدة.

5. "حجب" المعلومات عن الحدث و الارتكان إلى الصمت و عدم التعليق أملا في أن تزول السحابة تلقائيا.

إن هذه الآليات الحاضرة قد تصبح في المستقبل القريب غير فاعلة بفعل انتشار تكنولوجيا الاتصال و تزايد قدرة الجمهور على إعادة قراءة الخطاب الإعلامي الرسمي. فقد أصبحت الإنترنت و البريد الإلكتروني ورسائل النقال وسائل حديثة في نشر أو الحديث عن الأحداث التي تغيب في وسائل الإعلام الرسمية إضافية إلى سهولة مشاهدة القنوات الفضائية المتعددة.

6. غياب أبرز نوع من فنون الصحافة وهو "تحقيق التحري" (investigative reporting). ويعتبر هذا الفن وسيلة أساسية في تحقيق "الشفافية" (transparency) و "المحاسبية" (accountability) المطلوبة في المؤسسات و المجتمع على حد سواء. وكان هذا الفن سببا في ارتفاع عدد من البرامج الإعلامية في المؤسسات الغربية كمثل برنامج "60 دقيقة" (60 Minutes) الذي تبثه قناة سي، بي، أس (CBC) الأمريكية. فالصحافة بهذه الفن تلعب دور "المتتبع الناقد" لأداء السلطة التنفيذية مما يكسب الصحافة صفة

7. ترتيب الأوليات بطريقة تجعل بعض الأحداث مثل نشاط الرئيس و أعوانه محور التغطية الإعلامية. ومما هو معروف أن نشاط الشخص المسؤول قد يكون الخبر في ذاته كما يبرز ذلك في شروط الخبر، أي الشهرة (prominence)، ولكن أن يغطي ذلك كل الخبر تقريبا أو يطغى على أخبار أخرى ذات قيمة خبرية بينة فذلك أشبه ما يكون بالعلاقات العامة التي ليست في محلها. وعامة، فإن الجمهور "النشط" يدرك هذه المعادلة فيمارس ما يعرف بالانتقاء التصوري (selective perception) في هذه الحالة.

ويمكن أن يتم استخدام الصحافة في التخويف أيضا، ويشمل ذلك:

1. التركيز على "العقاب" الذي "يسلط" على المخالفات "الصغيرة" المتكررة يوميا كالسائق المتهور وسارق المتجر و متسكع الشارع والشاب المغازل، وبالطبع فإن هذه السلوكيات مذمومة بذاتها ولكنها ليس بالشأن الكبير بالمقارنة.

2. إمطار "القارئ" المستمر و تذكيره بجملة الإجراءات والقوانين الجديدة التي تحد من هذه الظاهرة و تلك و معظمها يصب في مجال تضيق حركة الفرد و نشاطه و مشاريعه أيا كانت.

3. تكوين صورة ذهنية "تشاؤمية" عن الأوضاع الاقتصادية وإلهام القارئ أن ذلك الأمر نتيجة ظروف دولية خارجة عن السيطرة ومن باب إذا عمت "المصيبة" خفت. يترتب عن ذلك مطالبة "المواطن" تحمل

تزايد تكاليف المعيشة و المساهمة بتحمل أعبائها باستمرار دون مساءلة.

4. "تضخيم" الأخطار و التهديدات على الأمن العام و المصلحة الوطنية و استحضار "العدو" سواء أكان حقيقيا أو وهميا كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

و يدخل في هذه المعادلة التخويف" الذي تنقله الصحافة العربية عن الصحافة العالمية و الموجه إلى المنطقة العربية و الإسلامية والذي مفاده "إذا لم تكن معنا فأنت ضدنا." و يشمل ذلك:

1. نقل "التهديد و الوعيد" الذي يأتي على لسان صناع القرار في البلدان الغربية و الموجهة ضد هذا البلد العربي أو الإسلامي أو ذاك. وإذا كان خطاب "التخويف" هذا يصاغ لكل بلد على حدة مرحليا، فإنه يتوسع مع الزمن و يشمل أكثر من بلد وفق نفس الاستراتيجيات.

2. تبني نفس المنطق الذي يقدمه صناع القرار في البلدان الغربية في تبرير هذا الخطاب "التخويفي". فمثلا إذا ورد في تبرير هؤلاء أن هذا البلد أو ذاك لا يحترم حقوق الإنسان سارت الصحافة العربية في المسار نفسه تقريبا وقد تجد لنفسها ما يبرر ذلك فتفصل في الموضوع و تعقد لقاءات و ندوات حول الموضوع ذاته حتى تقتنع بهذا التبرير ذاتيا، وكأن هذه الصحافة أشبه ما تكون بصنف جديد من "الببغاء".

3. اتخاذ موقف الدفاع أو الانخراط في التعامل مع الأوصاف والالتزامات التي تردها الصحافة الغربية عن المنطقة العربية و الإسلامية. فإذا كان الوصف

تجليات الخوف في الصحافة..... أ. د. عبد الرحمن عزي

هو "العنف" عمدت الصحافة العربية إلى العمل تحت تأثير هذا الاتهام وكأن العنف سمة المنطقة بالفعل. وفي غياب الثقة في النفس، تكاد هذه الصحافة "تصدق" ما يرد عن المنطقة من أوصاف خاصة إذا كانت بعض الشواهد الظرفية تصب في اتجاه تلك الأوصاف.

والمعروف أن جزءا من الصحافة الغربية يعكس تلك الصور النمطية التي كان يولها هولويود⁽⁴²⁾ عن العرب و المسلمين باستمرار على أنهم "أوغاد، إرهابيون، كسولون، همجيون، ملتحنون متعطشون للجنس يغتصبون الشقراوات، يمولون الإرهاب، يقتلون المدنيين و يستهدفونهم في مدعهم و دور السينما و يحضرون لتدمير المدن بالأسلحة البيولوجية و النووية..."⁽⁴³⁾

إن الخوف و التخويف في الصحافة يقود إلى تحديد العوامل التي ولدت هذه الحالة المرضية، و بمعنى آخر، لماذا الخوف في عالم الصحافة العربية؟ يمكن إعادة هذه الظاهرة إلى ما يلي: أ) "الجهل" بإمكانيات الأمة و قدراتها ورصيداها التاريخي في شتى المجالات. والمعروف حتى في دراسة مصادر السلطة أن سلطة الشخصية "السلطوية" مستمدة من إذعان الرعية وليس في الشخص ذاته. ويؤدي "الجهل" إلى وضع كل أوراق الحل في أي قضية في يد الطرف الآخر الذي يظهر أنه الأقوى. وبتعبير ابن خلدون في سياق مماثل "فإن المغلوب يقلد الغالب." و يتزامن ذلك مع سعي جزء من الإعلام الغربي الموجه للشعوب العربية و الإسلامية إلى "انتزاعها من واقعها و ترويج النموذج و القيم الغربية في الاستهلاك، و التفكير و الاعتقاد، و إحداث تغيير في البنية العامة و السياسية و الثقافية بما ينسجم مع المصالح الغربية."⁽⁴⁴⁾ ب) العجز: و يتعلق ذلك

بتحجيد أو إبطال الطاقة الكامنة في الفرد و الأمة تصبح هذه الأخيرة رغم كثرتها "كغشاء السيل." (ج) فقدان الإحساس بالهوية: و يخص ذلك عزل الفرد (أو الجماعة) عن انتمائه و رصيده قيميا و ثقافيا و اجتماعيا و تاريخيا فيتحول إلى حالة منعزلة "في مهب الريح." (د) فقدان الثقة في النفس و الشعور بالدونية في العلاقة مع الآخر: و يمثل ذلك إحساس الفرد (أو الجماعة) بالنفور أو الاغتراب عن الذات و رؤية ما لا يملكه أو ما يرغبه في الآخر. وقد وصف مالك ابن نبي هذا الإحساس في العلاقة مع المستعمر "بالقابلية للاستعمار."

آثار الخوف المتولد عن الصحافة على الفرد و المجتمع

إن الخوف الذي يمثل إنتاج جملة من العوامل و منها الصحافة يجمل في طياته انعكاسات سلبية على الفرد و المجتمع. و تشمل هذه الأخيرة العناصر التالية:

- اليأس: و يمثل الإحساس بعدم القدرة على التأثير في الأحداث و من ثم انعدام أسباب تغيير الحال. و يترتب عن ذلك الارتكان إلى الجمود و القعود و الركود.

- الهروب من مواجهة الواقع: و يعني هذا التصرف بإبعاد إمكانية تغيير الواقع و التماس الأعذار عن ذلك و احتمال اللجوء إلى أصناف متعددة من الإدمان خوفا من هذه المواجهة. و يترتب عن ذلك منع الفرد (أو الجماعة) من تغيير ما بنفسه وواقعه.

• فقدان التوازن و القدرة على التكيف: ويقصد بذلك سيطرة

الخوف على المشاعر الأخرى المكونة لذات الفرد (أو الجماعة) فتغطي

حالة الخوف هذه على الفرد و سلوكه فيبالغ في قضايا تبدو طبيعية عند

الآخرين.

• الكبت: و يشير ذلك إلى عدم القدرة و "الفشل" في التعبير

عن شحنات انفعالية قد تكون عادية فتختزن في لا شعور الفرد و قد تبرز

في شكل أمراض نفسية وجسدية شتى.

• الانشغال بالقضايا الثانوية: و يعنى ذلك الدخول في تفاصيل

القضايا الهامشية على حساب القضايا ذات الأولوية. والمعروف أنه إن لم

يشغل الفرد (أو الجماعة) نفسه بالخير مثلاً شغلته بالشر كما يقال.

• المهادنة: فالخوف أياً كان نوعه يؤدي إلى التصنع و المحاملة

و التملق و ربط مصير الفرد (أو الجماعة) بالآخر.

• تعطيل القيم الذي تشكل مصدر القوة في الفرد (و الجماعة):

فالخوف يأتي على الطرف الآخر من قيم العزة و الكرامة و الشجاعة و

الإقدام وغيرها و التي تعتبر المرجع في كبح جماح الخوف.

تأثير الأجندة السياسية و الإعلامية الدولية

يدخل الخوف أيضاً في أجندة المؤسسة الرسمية المحلية و الدولية وذلك

بهدف تحقيق أهداف معلنة أو غير معلنة. فالمؤسسة الرسمية المحلية قد تلجأ أحياناً

إلى التخويف في "فرض" أجندتها، فيصبح "الأمن" أو "الإرهاب" في أعلى سلم

أولياتها مثلا فينعكس ذلك في الصحافة ذاتها، ثم ينتقل ذلك كما تفترض نظرية تحديد الأولويات⁽⁴⁵⁾ (agenda setting theory) إلى الجمهور العام. وقد ترتبط الأجندة المحلية بالدولية فتفقد الأجندة المحلية قرارها وتأثيرها في الأحداث فينعكس ذلك سلبا على الصحافة و الجمهور العام أيضا. و في الكثير من الأحيان تؤثر وسائل الإعلام الدولية (الأمريكية خاصة) في أجندة الصحافة العربية. فالتخويف أصبح جزءا رئيسا في الأجندة الدولية وصحافتها وذلك ما ينعكس في الصحافة العربية أيضا. وقد ينتقل هذا الهاجس إلى الجمهور العام الذي يصبح بدوره إما منشغلا أو تحت تأثير الخوف، إذ بينت دراسات الأحداث أن وسائل الإعلام قد لا تنجح كثيرا في تحديد ما يفكر فيه الناس ولكنها تنجح بما لا يدع مجالا للشك في التأثير فيما يفكر حوله الناس عامة.

إعادة تأسيس البنية القيمية في الصحافة:

نحو صحافة "متوازية" بدون مهادنة أو تحريض

إن الخوف شديد الارتباط بالقيمة، أي الضوابط التي تحكم الخوف. فكلما كانت هذه الضوابط قائمة كان الخوف في محله. وفي غياب القيمة، يتحول الخوف إلى حالة مرضية أي الفوبيا (phobia). فالقيمة تدفع الفرد إلى التعلق بالأسنى لا الفرد. والخوف جزء من جملة المشاعر التي تشكل كيان الفرد و الأمة. إن أرقى أنواع الخوف كما بين الأقدمون الخوف من الله. وتأتي الأنواع الأخرى من الخوف أقل منزلة و ثانوية بالمقارنة. وتوجد العديد من القيم في ثقافتنا و التي تبدو "معطلة" جزئيا أو كليا وتساهم الصحافة في هذا التعطيل كقول الحق "ولو كان مرا" و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر

تجليات الخوف في الصحافة..... أ. د. عبد الرحمن عزي

والحرص على متطلبات الضمير المهني و المصلحة العامة وغيرها. و إعلاميا، فإن هذه "القيم" تبرز أكثر حتى وإن كان ذلك جزئيا، في مجال أخلاقيات المهنة الصحفية و موثيق الشرف و القوانين الإعلامية. وهذه الأخيرة بدورها مازلت غير كافية أو غير فاعلة أو تزيد في تعميق ظاهرة الخوف في الصحافة العربية.

إن مراجعة موثيق الشرف العربية⁽⁴⁶⁾ بدءا بميثاق "فدرالية الصحفيين العرب" سنة 1972 إلى ميثاق قناة الجزيرة سنة 2004 يظهر أنه على الرغم من التطور في اتجاه تمثين التزعة الحرفية نظريا على الأقل إلا أن هناك مجالات ما زالت إما "معلقة" أو وقع في شأها تراجع.

فالمجالات التي وقع فيها ارتقاء نظري تشمل حق الصحفي في الوصول إلى مصادر الخبر، حق الصحفي في الوصول إلى مصادر الخبر، فصل الخبر عن الرأي، التعامل الموضوعي مع التنوع الاجتماعي و الثقافي و السياسي في المجتمع، عدم استخدام الوسائل غير المشروعة في الحصول على الخبر و الصورة، الخ.

و تتضمن المجالات المعلقة تحديد الجهة التي ترتبط بها مسؤولية الصحفي: المؤسسة الرسمية، المؤسسة الإعلامية التي ينتمي إليها الصحفي، مالك المؤسسة الإعلامية، أو بعض المفاهيم المجردة كالوطن و الأرض، أو الحق و ارتباطه بالقيمة أو مصلحة الأمة الخ.

وفي مراجعة البنية القانونية للصحافة في البلدان العربية⁽⁴⁷⁾ اتضح:

إن البلاد العربية أقرت مبدأ حرية الرأي في نظامها القانوني الداخلي، دستوريا و تشريعيًا، غير أن هذه الحرية وضع لها القانون قيودًا، الأمر الذي يضع الصحافة في حالة التبعية تتميز برقابة تمارس أحيانا بتشديد وأحيانا بليونة، إن موضوع الترخيص المسبق لإصدار جريدة و بطاقة التعريف المهنية الصحفية و الرقابة و ضرورة اللجوء إلى القضاء من أجل الطعن.. كل ذلك يقتضي المراجعة مع مراعاة التطور الحاصل بالنسبة لتطبيق الأحكام الدولية، كما يقتضي حق المواطن في الإعلام اكتشاف الحقيقة و الموضوعية في نقل المعلومات من طرف الصحفي، الأمر الذي يتطلب وضع ميثاق الأخلاقيات و شرف المهنة تكون أحكامه قاعدة للانضباط الذاتي حتى يتسنى للصحفيين فرض شخصيتهم سواء بالنسبة للسلطة السياسية أو الجمهور. أما بالنسبة لشدة العقوبات الجنائية في مجال مخالفات النشر، و التي تتميز أحيانا بعدم النسبية مع الجريمة، فإنها تتطلب إعادة النظر مع الأخذ بعين الاعتبار أننا بصدد مجال يهم حرية الرأي و الإعلام و لا يتعلق بالقانون العادي فقط. (48)

و تشمل المجالات التي وقع فيها تراجع قضيتي "الحرية" و "المسؤولية الاجتماعية". فما زالت إمكانية نقد المؤسسات الرسمية غير قائمة أو محدودة، بل إن الاتجاه (49) هو إدخال هذا المجال في باب المحظورات (sujet taboo). كما أن معظم المواثيق والقوانين الإعلامية تتضمن إحالات إلى قسوانين النشر أو العقوبات وجلها تسرد قائمة طويلة من اللاءات و العواقب المترتبة عن

"التجاوزات" وذلك ما يصفى "جوا" من الخوف و الترقب في محيط العمل الصحفي. يضاف إلى ذلك أن الدساتير العربية وإن كانت تتحدث عن أهمية "حرية الصحافة" إلا أنها تقيد ذلك بتعبير قابل لأي تأويل، أي الأمن الوطني أو المصلحة العامة. فالصحافة نظريا حرة إلا أنها ليست كذلك في نفس الوقت إذ أن "الرقب" له الصلاحية في تحديد معنى هذه التعبيرات الخاصة "بالمصلحة". كما أن بعض المواثيق و القوانين الإعلامية تصرح بأن رقابة الصحافة تكون ضرورية في "الحالات القصوى" ثم تترك هذه الحالات لتقدير "الرقب". إن هذا التراجع لا يمس المجال السياسي فحسب بل الثقافي أيضا، فما يث في عدد من القنوات الفضائية من "عنف" ومساس بقيم المجتمع أو "حسه الأخلاقي و الجمالي" لا ينم عن روح المسؤولية الاجتماعية التي تلزم هذه الوسائل احترام الذوق العام كونها تعمل في المجال العام الذي يمس المجتمع ككل وليس المجال الشخصي الذي يمكن تبريره بما يمكن اعتباره "حرية شخصية"، فالمعروف أن حرية أي طرف تتوقف عند حدود "الإساءة" إلى الطرف الآخر. وإذا، فإن هناك تسبب في هذا المجال وأصبحت بعض وسائل الإعلام منفذا للمحتويات التي تتناقض مع قيم المجتمع و ثقافته وأذواقه.

وعامة، فإن مواثيق الشرف الإعلامية العربية وعلى الرغم من أهميتها فهي ليس فاعلة في الواقع لعدة عوامل ومنها الخوف. فالصحفي، كما أشرنا، يمارس الرقابة الذاتية التي تصبح مع الزمن جزءا من سمته و سلوكه بغض النظر عما تدعوه إليه أخلاقيات المهنة. و يتضح أيضا⁽⁵⁰⁾ أن بعض الصحفيين ومن جراء "الخوف" لا يستغلون هامش الحرية المتاح لهم في العمل، فيتجنبون بعض

القضايا من باب الحيلة و الحذر والبقاء على جانب الأمان كما يقال. يضاف إلى عدم فعالية هذه الموائيق، الضغوطات الإدارية و غياب "ثقافة النقد" والدور المحدود الذي تمارسه جمعيات الصحفيين التي كثيرا ما تكون رسمية أو شبه رسمية وكذا "ضعف" التكوين الإعلامي في مجال الأخلاقيات و القوانين الإعلامية. وإذا، فإن المطلوب في هذا الوضع شعار "نحو حرية أكثر و مسؤولية اجتماعية أكثر" وذلك يصب في مزيد من الحرفية و الوعي بقضايا المجتمع و الأمة.

إن واقع الصحافة في المنطقة العربية اليوم يتسم بالخوف المرضي في معالجة القضايا الداخلية وقضايا الأمة عامة، ولكل من الخوف داخليا والتخويف خارجيا بحاله و أدواته.

فالوضع داخليا يدعو إلى الإصلاح بإجماع الخاصة والعامة، غير أن هذا الأخير يتعين أن يكون قائما على الدراسة و المنهجية العلمية و التدرج و فقه الأولويات و الموازنات. ويمكن للصحافة أن تلعب دورا رياديا في هذه المهمة التاريخية إذا كانت أداة ذات استقلالية إيجابية. و يقصد بذلك ألا تتحول الصحافة إلى مجرد ناطق رسمي باسم نظام الحكم أو تتحول إلى النقيض من ذلك فتدعو إلى السلوك السلي و التمرد عن الوضع مثلا. فالمهادنة و "التملق" تجاه نظام الحكم يفقدها المصداقية في أوساط المجتمع أو ما يسمى "بالرأي العام،" كما أن التحريض على النظام ذاته يؤدي إلى عدم الاستقرار و الدخول في دوامة "الفوضى" التي تستنفذ طاقة المجتمع و موارده دون جدوى. إن للصحافة دور في تجاوز الخوف المرضي و اتباع المنهج "التربوي" في توجيه الإصلاح أو التأثير فيه أو حتى قيادته ليس كوسائل في حد ذاتها ولكن كفضاء

تلتقي فيه جل الأطراف الفاعلة في المجتمع. فالصحافة ينبغي أن تتبنى الشفافية في التعامل مع مختلف الأطراف المشكلة للمجتمع و توفر الإطار الذي تتلاقى أو تتلاقي فيه الأفكار و التوجهات وصولاً إلى الحد الأدنى أو الأمثل من التوافق الذي يحدث قفزة نوعية في شتى مجالات النمو و الحياة.

و التعامل مع التخويف الخارجي يتطلب بعض النقاط المبدئية حتى لا نقل الاستراتيجية التي تبدو بعيدة المنال وإن كانت مطلباً مشروعاً و ملحاً. ويتعين على الصحافة في المنطقة العربية من جملة ذلك ألا تنخرط بدون وعي في أجندة الصحافة العالمية، بل تعمل إدراج أجندتها إن وجدت في التعامل مع "الرأي العام الداخلي خاصة" كوسيلة في إمكانية التأثير ولو جزئياً على الرأي العام الخارجي. وتتضمن بعض هذه المبادئ الحكم^(٥١) التالية التي تجعل الخوف و التخويف في خانة الاعتدال:

• أن تقوم الصحافة "بالشيء الصحيح" بدل أن تكثر الجدل فيما ينبغي أو لا ينبغي القيام به:

وفي هذا المجال، فإن المطلوب ليس "إعادة اكتشاف العجالات" ولكن إنجاز الحد الأدنى مما تطلبه المهنة من إعلام (أ) ذو موضوعية نسبية، (ب) قائم على الحقائق بدل الآراء، (ج) مرتبط بقضايا المجتمع و أولياته و (د) منسجم مع قيم المجتمع و رصيده الثقافي و التاريخي.

• أن حماية الصحافة من إمكانية "الفشل" هي في أيديها بينما إمكانية هزيمة الآخر هي ذات الآخر نفسه:

ويعني ذلك أن النقص يكمن في الصحافة العربية و التغيير "الحقيقي" يبدأ من ذاتها، أما الارتكان إلى الغير فمسألة تحمل الكثير من "الأوهام". فالحل دوما مسألة تفاوض أو أخذ و رد وليست كل المفاتيح عند الآخر مهما كانت قوته أو عولته.

• أن الماء ليس له شكل ثابت وكذا الحال في الصحافة:

فمجال الصحافة أكثرها تغيرا سواء تعلق الأمر بالمضمون و التحديات أو تكنولوجيا الاتصال. وعليه، فإن نهج الصحافة العربية يتعين أن يكون التكيف و المرونة في التعامل مع الأحداث. فليس هناك أوصافا ثابتة إنما كل وضعية تتطلب الاجتهاد أو الإبداع الذي يفرضه لسان الحال.

• أن الخطاب الإعلامي الداخلي المتذبذب يؤدي إلى نجاح

الخطاب الإعلامي الخارجي:

إن تعدد الأصوات الإعلامية التي لا تصب في نفس النهر تبخر أو تمتصها الرمال الشاسعة. ويعني ذلك ربط هذه الأصوات بخطاب يحمل درجة معقولة أو عالية من الانسجام. وفي حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "سدّدوا وقاربوا وأبشروا."

• أن عدم الاعتماد على قدرات المجتمع يفقد الصحافة إمكانية التفوق في

الميدان:

و يشير ذلك إلى أن مصدر قوة الصحافة مجتمعها و مؤسساتها وليس السعي نحو إرضاء الآخر أو الامتثال له أو تقمص شخصيتها أو الشعور بالدونية

نحوه. و يدخل في هذا الإطار إعادة الصحافة إلى المجال العام.

- إن تأثير الصحافة على الرأي العام يكمن في إعطائه غايات سامية مشتركة:

و يخص ذلك إدراج جل شرائح المجتمع وقواه في الجهد الإعلامي وإسهام الصحافة في توضيح أهداف المجتمع وقيمه كما تدعو إلى ذلك نظرية المسؤولية الاجتماعية في الإعلام مثلاً.

- أن نجاح الصحافة دائماً هو مسألة مجتمع بأسره:

و يترتب عن ذلك ألا يكون هناك إقصاء يخص فئة أو طرفاً اجتماعياً أياً كان في العملية الإعلامية و يشمل ذلك الشرائح التي تتنوع في العرق أو الدين أو المذهب أو الحيز الجغرافي وغيره، فالقوة في التوحد والفضل في التنازع.

- يمكن للصحافة تكتب أو تتحدث و لكن ذلك لا يضمن الاستماع بالضرورة، لا بد أن تحسن استخدام كيفية تقديم الخطاب و بإتقان أحدث الوسائل:

فالعبارة في الإعلام التأثير وليس كثرة الأصوات، كما أن مهارات الاتصال وفنونه و تقنياته جزء من هذه الصناعة أو الحرفة، وبدونها تكون "الحرب" غير متكافئة.

- على الصحافة أن تجعل الخطر في الأمام و الأمان في الخلف:

و يعني ذلك أن ما يتوقع إنجاز من الصحافة في المنطقة العربية وفي ظروف

"التخلف" على مستويات عدة أكبر بكثير مما تم تحقيقه بالمقارنة.

- عندما تختلط الأصوات الإعلامية و تبدو الأمور مشتتة لا ينبغي أن تتسرب الفوضى إلى الخطاب الإعلامي المرغوب:

إن العولمة و تطور تكنولوجيا الاتصال زاد من حركة الاتصال و انفجار المعلومات و وتعدد الرسائل و أساليب الإقناع و الدعاية، غير أن ذلك لا ينبغي أن يؤدي إلى تشتت الثوابت التي تمثل مصدر قوة الصحافة في المنطقة العربية.

- لا ينبغي نصب خيام الصحافة في المواقع الخطرة:

و يعنى ذلك عدم الاسترخاء أو الغفلة في ملاحقة التطور الإعلامي ومواجهة المستحدث و التحديات في مجاله باستمرار خاصة في عهد البقاء للأقوى.

- في المكان المحاصر أو المحصور إعلامياً، فإن التأخر يعنى الفناء :

إن حال ضعف المجال الإعلامي في المنطقة العربية يستدعي استغلال الزمن إلى أقصى الحد و العمل في حالة طوارئ و التي بدونه ينكسر هذا الانجاز المحدود أمام الرياح العاتية المتلاحقة.

الهوامش:

(1) قريش، 4

(2) محمد عابد الجابري، "آليات تشويه صورة العرب في الإعلام الغربي"، في:

<http://www.balagh.com/pspa/garb/Li0m0u4l.htm>

(3) أحمد بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، المكتبة العصرية، لبنان، 2003،

ص. 307-306

(4) ن، م، س.

(5) الرحمن، 46

(6) البينة، 8

(7) أحمد، 309.

(8) ن، م، س.

(9) ن، م، س.

(10) فاطر، 28

(11) أحمد، 306.

(12) ن، م، س، 308.

(13) القصص، 18.

(14) القصص، 21

(15) القصص، 31

(16) القصص، 33

(17) القصص، 34

(18) طه، 21

(19) طه، 45-46

(20) طه 67-68.

(21) البقرة، 150.

(22) فاطر، 28.

(23) انظر مثلاً

The Phobia List, in <http://www.phobialist.com>

John Stward Mill, On Liberty (24)

Max Weber, Protestant Ethics and the Spirit of Capitalism, (25)

(26) فقد اعتبر البعض آنذاك أن المطبعة من عمل الشيطان.

Sait Maden, Turkish Graphic Arts, in (27)

<http://sanat.bilkent.edu.tr/interactive.m2.org/Graphic/maden.html>

(28) وظهر المطبعة في مصر مع حملة نابليون سنة 1798 وفي الجزائر مع الحملة الفرنسية

على الجزائر سنة 1830.

(29) لا شك أن ظهور الصحافة و الفضائيات المستقلة قلل من سلطة الخوف هذه.

(30) طوماس جفرسون، الرئيس الثالث لأمريكا 1801-1809.

Azzi Abderrahmane, Social Control in the Newsroom: A Case (31)

Study, Master Thesis, North Texas State University, 1982.

(32) "كتاب في الخوف لحكم البابا"، في

http://ww.metransparent.com/texts/hakam_baba_book_about_fear.

htm

(33) رضوان بوجمعة، "المراسلون المحليون في الصحافة المكتوبة: دراسة سوسيولوجية

لمراسلي الصحف في الجزائر"، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 19، جانفي - جوان،

2005، ص. 115.

(34) ن، م، س، ص. 114.

(35) وهو يرى في كتابه "صناعة الاجتماع" (Manufacturing Consent) أن

الإجماع تجاه القضايا المحلية و الدولية يتم صناعته من طرف وسائل الإعلام بتقنيات دعائية

متعددة. والكتاب دراسة ميدانية عن الموضوع ذاته بالتركيز على قضايا أمريكا اللاتينية في

الصحافة الأمريكية.

(36) انظر في هذا الشأن:

Culture of Fear, in http://en.wikipedia.org/wiki/Culture_of_fear
(37) من كتبه:

Culture of Fear: Risk-taking and the Morality of Low Expectations
(1997)

Politics of Fear: Beyond Left and Right (2005)

Culture of Fear , in Ibid (38)

(39) أما في وسائل الإعلام الغربية فهناك آليات أخرى ذكرها شومسكي و مور و غيرهم
و منها:

-تشويه الإحصائيات.

-تحريف الكلمات عن مواضعها.

-ترسيخ الأفكار المسبقة و التحيز تجاه الأقليات.

-تعميم القضايا المعقدة و المتعددة الأبعاد.

-قلب معادلة السبب و النتيجة فبصبح السبب نتيجة و النتيجة سببا.

انظر في هذا الشأن:

Culture of Fear, in http://en.wikipedia.org/wiki/Culture_of_fear

(40) فمثلا، عندما وقعت أحداث 5 أكتوبر 1987 في الجزائر العاصمة وتم خلالها إحراق
العشرات من المؤسسات العامة لم تتناولها الصحافة لأيام إلا بعد أن شاعت في وسائل
الإعلام الفرنسية و خاصة المسموعة و المرئية.

(41) ما يكتب على الإنترنت على انفونزا الطيور يجعل الموضوع أكثر جدية مما يظهر في
وسائل الإعلام العربية الرسمية حتى على مستوى ذكر الحقائق فقط.

(42) كفيلم "الصامت" سنة 1917 و "الشيخ" سنة 1921، و "أرابيسك" سنة 1966، و
"تحت الحصار" سنة 1968، و "ذعر الإرهاب" سنة 1987.

(43) مي العبد الله، محمد الخولي، الإعلام و القضايا العربية بعد 11 أيلول: 2001: نحو

خطاب إعلامي عربي جديد ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 2002، ص. 54.

(44) ن. م. س.

(45)

(46) نجد أن العديد من وسائل الإعلام العربية قد طورت لنفسها ما يسمى بدليل العمل التحريري (stylebook) الذي يحدد جزئيات العمل الصحفي كمثال التعامل مع رسائل القراء و الهدايا الخ وذلك في سبيل تمكين حرفة الصحافة.

(47) أحمد الدراجي، "التنظيم القانوني للصحافة في البلدان العربية"، وثيقة بدون تاريخ

(48) ن، م، ص، ص. 73

(49) فمثلا يدعو اتحاد الإذاعات و التلفزيونات العربية إلى عدم انتقاد الحكومات العربية لبعضها البعض عبر وسائل الإعلام، وهو الأمر الذي لم تقبله قناة الجزيرة. و الحاصل أن مثل هذا الطلب حتى وإن كان له ما يبرره فلا ينبغي أن يصدر عن وسائل الإعلام ذاتها.

(50) حديث مع عدد من الممارسين الإعلاميين، ندوة أخلاقيات العمل الصحفي في الوطن

العربي، جامعة الإمارات، 2005-12-12

(51) د. عبد الرحمن عزي، "أطلبوا العلم ولو في الصين: قراءة في فكر حكيم صيني"،

دراسة غير منشورة.